

تشريع الله تعالى أعدل وأحكم الشرائع

إن البشرية جمعاء لو اجتمعت من أجل أن تأتي بتشريع وأحكام وقوانين يحكمون إليها فلن يستطيعوا أن يأتوا بمثل ما جاء به نبي الإسلام من عند ربه، لأن الذي خلقهم هو الله والذي يعلم شئونهم في الحال وفي المال هو الله ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (١) ﴿٢﴾

ولذا ألزم الله تعالى نبيه أن لا يعدل عن حكم الله إلى غيره، وحذره من أن يتبع أهواء الناس فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّئًا عَلَيْهِمْ فَاحِشَكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ بَرْزَخًا وَمِنْهَا جَاءَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعْنَاهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِنَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَيْنَاكُمْ فَاسْتَقِمْ وَالْخَيْرَاتُ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (٣) ﴿٤﴾ وَأَن أَمْحُكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَعْدَتْ لَهُمْ أَن يُفْتَسِحُوا عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّهُ يَذَّكَّرُ عَنْهُمْ فَيْضُهم بِبَعْضِ دُورِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ (٥) ﴿٦﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْتَغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوفِقُونَ﴾ (٧) ﴿٨﴾

(١) سورة: الملك الآية: ١٤.

(٢) سورة: المائدة الآيات: ٤٨ - ٥٠.

يقول ابن كثير رحمه الله: «وَقَوْلُهُ: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شَرْعَةً وَمِنْهَا جَا﴾ الشَّرِيعَةُ هِيَ مَا يُبْتَدَأُ فِيهِ إِلَى الشَّيْءِ وَمِنْهُ يُقَالُ: «شَرَعَ فِي كَذَا» أَيْ: ابْتَدَأَ فِيهِ. وَكَذَا الشَّرِيعَةُ وَهِيَ مَا يُشْرَعُ مِنْهَا إِلَى الْمَاءِ. أَمَّا «الْمِنْهَاجُ»: فَهُوَ الطَّرِيقُ الْوَاضِحُ السَّهْلُ، وَالشَّنُّ: الطَّرَائِقُ، فَتَضِيرُ قَوْلُهُ: ﴿شَرْعَةً وَمِنْهَا جَا﴾ بِالسَّبِيلِ وَالشَّنِّ أَظْهَرَ فِي الْمُنَاسَبَةِ مِنَ الْعَكْسِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ هَذَا إِخْبَارٌ عَنِ الْأَمَمِ الْمُخْتَلِفَةِ الْأَدْيَانِ، بِاعْتِبَارِ مَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رُسُلَهُ الْكَرَامَ مِنَ الشَّرَائِعِ الْمُخْتَلِفَةِ فِي الْأَحْكَامِ، الْمُتَّفِقَةِ فِي التَّوْحِيدِ، كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَحْنُ مُعَاشِرِ الْأَنْبِيَاءِ إِخْوَةٌ لِعَلَّابٍ، دِينُنَا وَاجِدٌ يَعْنِي بِذَلِكَ التَّوْحِيدَ، الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ كُلَّ رَسُولٍ أَرْسَلَهُ، وَصَمَّمَهُ كُلَّ كِتَابٍ أَنْزَلَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ ١٥٠ ﴿١﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصُّلُوفَ﴾ ١٦١ ﴿١﴾ الْآيَةُ، وَأَمَّا الشَّرَائِعُ فَمُخْتَلِفَةٌ فِي الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي، فَقَدْ يَكُونُ الشَّيْءُ فِي هَذِهِ الشَّرِيعَةِ حَرَامًا ثُمَّ يَحِلُّ فِي الشَّرِيعَةِ الْأُخْرَى، وَبِالْعَكْسِ،

(١) سورة: الأنبياء الآية: ٢٥.

(٢) سورة: النحل الآية: ٣٦.

وَحَفِيفًا فَيَرَادُ فِي الشَّدَّةِ فِي هَذِهِ دُونَ هَذِهِ. وَذَلِكَ لِمَا لَهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ، وَالْحُجَّةِ الدَّامِغَةِ.

قَالَ سَعِيدُ بْنُ أَبِي عَرُوبَةَ، عَنْ قَتَادَةَ: قَوْلُهُ: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شَرْعَةً وَمِنْهَا جَا﴾ يَقُولُ: سَبِيلًا وَسُنَّةً، وَالسُّنَنُ مُخْتَلِفَةٌ: هِيَ فِي التَّوْرَةِ شَرِيعَةٌ، وَفِي الْإِنْجِيلِ شَرِيعَةٌ، وَفِي الْفُرْقَانِ شَرِيعَةٌ، يُحِلُّ اللَّهُ فِيهَا مَا يَشَاءُ، وَيُحَرِّمُ مَا يَشَاءُ، لِيَعْلَمَ مَنْ يُطِيعُهُ بِمَنْ يَعْصِيهِ، وَالَّذِينَ الَّذِينَ لَا يَقْبَلُ اللَّهُ غَيْرَهُ: التَّوْحِيدُ وَالْإِحْلَاصُ لِلَّهِ، الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ.

وَقِيلَ: الْمُخَاطَبُ بِهَذَا هَذِهِ الْأُمَّةُ، وَمَعْنَاهُ: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا الْقُرْآنَ﴾ مِنْكُمْ ﴿أَيُّهَا الْأُمَّةُ﴾ ﴿شَرْعَةً وَمِنْهَا جَا﴾ أَيُّ: هُوَ لَكُمْ كُلُّكُمْ، تَقْتَدُونَ بِهِ.

هَذَا مَضْمُونُ مَا حَكَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ مُجَاهِدٍ، رَحِمَهُ اللَّهُ، وَالصَّحِيحُ الْقَوْلُ الْأَوَّلُ، وَيَذُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ فَلَوْ كَانَ هَذَا خِطَابًا لِهَذِهِ الْأُمَّةِ لَمَا صَحَّ أَنْ يَقُولَ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ وَهُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ، وَلَكِنَّ هَذَا خِطَابٌ لِجَمِيعِ الْأُمَمِ، وَإِخْبَارٌ عَنْ قُدْرَتِهِ تَعَالَى الْعَظِيمَةِ الَّتِي لَوْ شَاءَ لَجَمَعَ النَّاسَ كُلَّهُمْ عَلَى دِينٍ وَاحِدٍ وَشَرِيعَةٍ وَاحِدَةٍ، لَا يُنْسَخُ شَيْءٌ مِنْهَا. وَلَكِنَّهُ تَعَالَى شَرَعَ لِكُلِّ رَسُولٍ شَرْعَةً عَلَى حِدَةٍ،

ثُمَّ نَسَخَهَا أَوْ بَعْضَهَا بِرِسَالَةِ الْآخِرِ الَّذِي بَعْدَهُ حَتَّى نَسَخَ الْجَمِيعَ بِمَا بَعَثَ بِهِ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ مُحَمَّدًا ﷺ الَّذِي ابْتَعَثَهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ قَاطِبَةً، وَجَعَلَهُ خَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ كُلِّهِمْ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعْتُمْكُمْ أَتَةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لَيَبْلُوْكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ أَي: أَنَّهُ تَعَالَى شَرَعَ الشَّرَائِعَ مُخْتَلِفَةً، لِيُخْتَبِرَ عِبَادَهُ فِيمَا شَرَعَ لَهُمْ، وَيُثَبِّتَهُمْ أَوْ يُعَاقِبَهُمْ عَلَى طَاعَتِهِ وَمَعْصِيَتِهِ بِمَا فَعَلُوهُ أَوْ عَزَمُوا عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ.

ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى نَذَبَهُمْ إِلَى الْمُسَارَعَةِ إِلَى الْخَيْرَاتِ وَالْمُبَادَرَةِ إِلَيْهَا، فَقَالَ: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ وَهِيَ طَاعَةُ اللَّهِ وَاتِّبَاعُ شَرْعِهِ، الَّذِي جَعَلَهُ نَاسِخًا لِمَا قَبْلَهُ، وَالتَّصْدِيقُ بِكِتَابِهِ الْقُرْآنِ الَّذِي هُوَ آخِرُ كِتَابِ أَنْزَلَهُ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ أَي: مَعَادُكُمْ أَتَمُّهَا النَّاسُ وَمَصِيرُكُمْ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (١٨) أَي: فَيُخَبِّرُكُمْ بِمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ، فَيَجْزِي الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ، وَيُعَذِّبُ الْكَافِرِينَ الْجَاهِلِينَ الْمُكَذِّبِينَ بِالْحَقِّ، الْعَادِلِينَ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ بِلَا دَلِيلٍ وَلَا بُرْهَانٍ، بَلْ هُمْ مُعَانِدُونَ لِلْبَرَاهِينِ الْقَاطِعَةِ، وَالْحُجَجِ الْبَالِغَةِ، وَالْأَدِلَّةِ الدَّامِغَةِ. **وَقَوْلُهُ:** ﴿وَأَن أَعْلَمُ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ تَأْكِيدٌ لِمَا

تَقَدَّمَ مِنَ الْأَمْرِ بِذَلِكَ، وَالنَّهْيِ عَنْ خِلَافِهِ.

ثُمَّ قَالَ (تَعَالَى): ﴿وَاحْذَرْتُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أُنْزِلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أَي: احْذَرُوا أَعْدَاءَكُمُ الْيَهُودَ أَنْ يُدْلِسُوا عَلَيْكَ الْحَقَّ فِيمَا يُنْهَوْنَ إِلَيْكَ مِنَ الْأُمُورِ، فَلَا تَغْتَرَّ بِهِمْ، فَإِنَّهُمْ كَذِبَةٌ كَفَرَةٌ خَوَنَةٌ. ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أَي: عَمَّا تَحْكُمُ بِهِ بَيْنَهُمْ مِنَ الْحَقِّ، وَخَالَفُوا شَرْعَ اللَّهِ ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّهُ يَذُرُّ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ دُورِهِمْ﴾ أَي: فَاغْلِبْ أَنْ ذَلِكَ كَائِنٌ عَنْ قَدَرِ اللَّهِ وَحُكْمِهِ فِيهِمْ أَنْ يَصْرِفَهُمْ عَنِ الْهُدَى لِمَا عَلَيْهِمْ مِنَ الذُّنُوبِ السَّالِفَةِ الَّتِي اقْتَضَتْ إِضْلَالَهُمْ وَنَكَالَهُمْ. ﴿وَإِنْ كَثُرَ مِنْ النَّاسِ لَفَيَقُونَ ۝﴾ أَي: أَكْثَرُ النَّاسِ خَارِجُونَ عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِمْ، مُخَالِفُونَ لِلْحَقِّ نَاوُونَ عَنْهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ۝﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْتَغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ يُكَيِّرُ تَعَالَى عَلَى مَنْ خَرَجَ عَنْ حُكْمِ اللَّهِ الْمُحْكَمِ الْمُشْتَمِلِ عَلَى كُلِّ خَيْرٍ، الشَّاهِي عَنْ كُلِّ شَرٍّ وَعَدْلٍ إِلَى مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَرْزَاءِ وَالْأَهْوَاءِ وَالْإِضْطِلَاحَاتِ، الَّتِي وَضَعَهَا الرُّجَالُ بِلَا مُسْتَدٍّ مِنْ شَرِيعَةِ اللَّهِ، كَمَا كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَحْكُمُونَ بِهِ مِنَ الصَّلَاحَاتِ وَالْجَهَالَاتِ، مِمَّا يَقْصُرُونَ بِأَرَائِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْتَغُونَ﴾ أَي: يَبْتَغُونَ وَيُرِيدُونَ،

وَعَنْ حُكْمِ اللَّهِ يُعْدِلُونَ. ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (١٠)
 أي: وَمَنْ أَعْدَلَ مِنَ اللَّهِ فِي حُكْمِهِ لِمَنْ عَقَلَ عَنِ اللَّهِ شُرْعَهُ، وَأَمَنَ
 بِهِ وَأَيَقَنَ وَعَلِمَ أَنَّهُ تَعَالَى أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ، وَأَرْحَمُ بِخُلُقِهِ مِنَ
 الْوَالِدَةِ بِوَلَدِهَا، فَإِنَّهُ تَعَالَى هُوَ الْعَالِمُ بِكُلِّ شَيْءٍ، الْفَادِرُ عَلَى كُلِّ
 شَيْءٍ، الْعَادِلُ فِي كُلِّ شَيْءٍ (١١).

يقول الإمام الشنقطي في تفسيره: «فَهَلْ فِي أَوْلِيَّتِكَ الْمُشْرِكِينَ
 مَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُوصَفَ بِأَنْ حُكْمَهُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَأَنَّهُ مُخَالِفٌ لِاتِّبَاعِ
 الْهَوَى؟ وَأَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْهُ أَصَابَهُ اللَّهُ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِ؟ لِأَنَّ الذُّنُوبَ لَا
 يُؤَاخِذُ بِجَمِيعِهَا إِلَّا فِي الْآخِرَةِ؟ وَأَنَّهُ لَا حُكْمَ أَحْسَنُ مِنْ حُكْمِهِ
 لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ؟»

سُبْحَانَ رَبَّنَا وَتَعَالَى عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيْقُ بِكَمَالِهِ وَجَلَالِهِ.
 وَمِنْهَا قَوْلُهُ - تَعَالَى - : ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَفْصِلُ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ
 الْفَاصِلِينَ﴾ (١٢)

فَهَلْ فِيهِمْ مَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُوصَفَ بِأَنَّهُ يَفْصِلُ الْحَقَّ، وَأَنَّهُ خَيْرُ
 الْفَاصِلِينَ؟

وَمِنْهَا قَوْلُهُ - تَعَالَى - : ﴿أَفَعَبَّرَ اللَّهُ أَلْبَتَى حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ
 إِلَيْكُمْ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ مَا اتَّخَذُوا الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ١٢٧، ١٣٢) بتصرف.

وَالْحَقُّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَعَمِّينَ ﴿٥١﴾ وَكُنْتَ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴿٥٢﴾
 فَهَلْ فِي أَوْلِيكَ الْمَذْكُورِينَ مَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُوصَفَ بِأَنَّهُ هُوَ
 الَّذِي أَنْزَلَ هَذَا الْكِتَابَ مُفَصَّلًا، الَّذِي يَشْهَدُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ
 مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ، وَبِأَنَّهُ نَمَتْ كَلِمَاتُهُ صِدْقًا وَعَدْلًا - أَيُّ صِدْقًا فِي
 الْأَخْبَارِ، وَعَدْلًا فِي الْأَحْكَامِ - وَأَنَّهُ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّامِعُ
 الْعَلِيمُ؟

سُبْحَانَ رَبِّنَا، مَا أَعْظَمَهُ، وَمَا أَجَلُ شَأْنِهِ.
 وَمِنْهَا قَوْلُهُ - تَعَالَى - ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ
 فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ مَا اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَنْزَلَ اللَّهُ تَقْدِيرًا﴾ ﴿٥٣﴾
 فَهَلْ فِي أَوْلِيكَ الْمَذْكُورِينَ مَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُوصَفَ بِأَنَّهُ هُوَ
 الَّذِي يُنَزِّلُ الرِّزْقَ لِلْخَلَائِقِ، وَأَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ تَحْلِيلٌ وَلَا
 تَحْرِيمٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ؟ لِأَنَّ مِنَ الضَّرُورِيِّ أَنْ مَنْ خَلَقَ الرِّزْقَ وَأَنْزَلَهُ هُوَ
 الَّذِي لَهُ التَّصَرُّفُ فِيهِ بِالتَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ؟
 سُبْحَانَهُ - جَلَّ وَعَلَا - أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ فِي التَّحْلِيلِ
 وَالتَّحْرِيمِ ^(١).

ويقول رحمه الله في موضع آخر:

الْحُكْمُ لَهُ وَحْدَهُ جَلَّ وَعَلَا لَا حُكْمَ لغيرِهِ أَلَيْسَ، فَالْحَلَالُ مَا

(١) أغواء البيان (٧/ ٥٢).

أَحَلَّهُ تَعَالَى، وَالْحَرَامُ مَا حَرَّمَهُ، وَالذِّينُ مَا سَرَعَهُ، وَالْقَضَاءُ مَا قَضَاهُ، وَحُكْمُهُ جَلُّ وَعَلَا الْمَذْكُورُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ (٦) شَامِلٌ لِكُلِّ مَا يَقْضِيهِ جَلُّ وَعَلَا، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الشَّرِيعُ دُخُولًا أَوَّلِيًّا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ نُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ (١١)، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (١٢)، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَهُ الْقُدْرَةُ فِي الْأَوَّلِ وَالْآخِرِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (١٣)، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

وَيُفْهَمُ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ أَنَّ مُتَّبِعِي أَحْكَامِ الْمَشْرُوعِينَ غَيْرَ مَا سَرَعَهُ اللَّهُ أَنَّهُمْ مُشْرِكُونَ بِاللَّهِ، وَهَذَا الْمَفْهُومُ جَاءَ مُبَيَّنًّا فِي آيَاتٍ أُخَرَ، كَقَوْلِهِ فِيْمَنْ اتَّبَعَ تَشْرِيعَ الشَّيْطَانِ فِي إِبَاحَةِ الْمَيْتَةِ يَدْعُو أَنَّهَا ذَيْبَحَةُ اللَّهِ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيَوْحُونَ إِلَكُمْ أَولِيَّائِهِمْ لِيُجَدِّدُواكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ (١٤)، فَصَرَخَ بِأَنَّهُمْ مُشْرِكُونَ بِطَاعَتِهِمْ، وَهَذَا الْإِشْرَافُ فِي الطَّاعَةِ، وَاتِّبَاعِ الشَّرِيعِ الْمُخَالِفِ لِمَا سَرَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمُرَادُ

بِعِبَادَةِ الشَّيْطَانِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشِرْكِ الْبَشَرِ إِنَّا مُخْلِصِينَ لَهُمْ مِنْهُم بِذَلِكَ إِنَّهُمْ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكَفَرُوا بِالَّذِينَ آمَنُوا﴾ (١٠٠) وَأَنَّ لَكُمْ عِدُوًّا مُبِينًا ﴿١٠١﴾ وَأَنْ لَّعَبْدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿١٠٢﴾، وَقَوْلِهِ تَعَالَى عَنْ نَبِيِّ إِسْرَافِيلَ: ﴿يَأْتِي لَا تَعْبُدُ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ (١٠٣)، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتَا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ (١٠٤)، أَيْ: مَا يَعْْبُدُونَ إِلَّا شَيْطَانًا، أَيْ: وَذَلِكَ بِاتِّبَاعِ تَشْرِيعِهِ، وَلِذَا سَمَّى اللَّهُ تَعَالَى الَّذِينَ يُطَاعُونَ فِيَمَا رَزَيْنَا مِنَ الْمَعَاصِي شُرَكَاءَ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ زُكِّرَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ﴾ (١٠٥)، وَقَدْ بَيَّنَّ النَّبِيُّ ﷺ هَذَا لِعَبْدِيِّ بْنِ حَارِثٍ لَمَّا سَأَلَهُ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ، قَبِيلَ لَهُ أَنَّهُمْ أَحَلُّوا لَهُمْ مَا حَرَّمَ اللَّهُ، وَحَرَّمُوا عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فَاتَّبَعُوهُمْ فِي ذَلِكَ، وَأَنَّ ذَلِكَ هُوَ اتَّخَذَهُمْ إِيَّاهُمْ أَرْبَابًا﴾.

وَمِنْ أَضْرَحِ الْأَدِلَّةِ فِي هَذَا: أَنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا فِي «سُورَةِ النَّسَاءِ» بَيَّنَّ أَنَّ مَنْ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى غَيْرِ مَا شَرَعَهُ اللَّهُ يَتَعَجَّبُ مِنْ رُحْمِهِمْ أَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِأَنَّهُمْ دَعَوَاهُمْ إِلَى إِيْمَانٍ مَعَ إِرَادَةِ التَّحَاكُمِ إِلَى الطَّاغُوتِ بِأَلْفَةٍ مِنَ الْكُذِبِ مَا يَحْصُلُ مِنْهُ الْعَجَبُ؛ وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ

إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ. وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾

وَيَهْدِيهِ النَّصْرُ مِنَ السَّمَاوِيَّةِ الَّتِي ذَكَرْنَا يَظْهَرُ غَايَةُ الظُّهُورِ: أَنَّ الدِّينَ يَتَّبِعُونَ الْقَوَائِينَ الْوَضْعِيَّةَ الَّتِي شَرَعَهَا الشَّيْطَانُ عَلَى الْإِسْنَةِ أَوْلِيَائِهِ مُخَالَفَةً لِمَا شَرَعَهُ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا عَلَى الْإِسْنَةِ رُسُلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ لَا يَشْكُ فِي كُفْرِهِمْ وَشُرْكِهِمْ إِلَّا مَنْ طَمَسَ اللَّهُ بَصِيرَتَهُ، وَأَعْمَاهُ عَنْ نُورِ الْوَحْيِ مِثْلَهُمْ^(١).

ويقول الإمام السعدي في تفسيره: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ أي:

أفيطلبون بتوليهم وإعراضهم عنك حكم الجاهلية؟!

وهو كل حكم خالف ما أنزل الله على رسوله. فلا ثم إلا حكم الله ورسوله أو حكم الجاهلية. فمن أعرض عن الأول ابتلي بالثاني المبني على الجهل والظلم والغبي، ولهذا أضافه الله للجاهلية، وأما حكم الله تعالى فمبني على العلم، والعدل والقسط، والنور والهدى.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ أَقْوَمِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ ﴿٦١﴾ فالموثق هو الذي

يعرف الفرق بين الحكمين ويميز - بإيقانه - ما في حكم الله من الحسن والبهاء، وأنه يتعين - عقلاً وشرعاً - اتباعه. واليقين، هو

(١) أضواء البيان (٣/ ٢٥٩).

العلم الثام الموجب للعمل.

ويذكر رحمه الله ما في الشرع من جمال وكمال فيقول: «إنما الوحي والقرآن والشرع، شرعه الرحيم الرحمن، وجعله موصلاً للسعادة والفلاح والفوز، وسهله غاية التسهيل، ويسر كل طريقه وأبوابه، وجعله غذاء للقلوب والأرواح، وراحة للأبدان، فنلقته الفطر السليمة والعقول المستقيمة بالقبول والإذعان، لعلمها بما احتوى عليه من الخير في الدنيا والآخرة»^(١).



(١) تفسير المعدي (١٠٥).